مَلْحَمَةُ القُدْسِ الشَّرِيف،
فِي سِيَرِ الفُرْسَانِ الثَّلاثَة،
عِمَادِ الدِّين، ونُورِ الدِّين، وصَلاحِ الدِّين.

(٣)

ثالثاً

القَصِيدَةُ الصَّلاحِيَّة

فِي سِيرَةِ المَلِكِ النَّاصِرِ صَلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِي
يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ شَاذِي
تَغَمَّدَه اللهُ تعالى بواسعِ رحمته. آمين
٥٣٢ - ٥٨٩ هـ

بقلم
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية (سابقاً)
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

وقفٌ على معهد الدراسات القرآنية للبنات
بمكة المكرمة.
العنوان: ١٣ شارع الحضارة. الرصيفة
خلف مسجد الأمير أحمد بمكة المكرمة
ص.ب ٩٥٠٩ الرمز البريدي ١١٩٥٥
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

هذا العمل بعنوان: القصيدة الصلاحية، في سيرة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، يوسف بن أيوب، بن شاذي، تغمده الله تعالى بواسع رحمته. آمين، يتألف من شقين، من الترجمة الموجزة، ومن القصيدة الصلاحية، وهي قصيدة دالية في بحر الطويل، وتقع في ١٢٩٤٥ بيتاً. ومطلعها:

أَلا إِنَّ صَلاحَ الدِّينِ يَسْعَى وَيَجْتَهِدْ ... لِتَحْرِيرِ قُدْسٍ إِنَّمَا هِيَ مَقْصِدِ

ولم يكن القصد من القصيدة أو الدراسة الإحاطة إنما الإيماءة.

إن صلاح الدين الأيوبي ثالث ملوك الإسلام الثلاثة العظماء الذين رفعوا راية الجهاد في سبيل الله تعالى ضد الصليبيين، وأحد فرسان القدس الثلاثة، عماد الدين، وابنه نور الدين، وصلاح الدين. والأخير وفقه الله تعالى فاستردّ القدس الشريف من الصليبيين، بعد أن نصره الله تعالى في حطين نصراً عزيزاً.

وفّق الله تعالى صلاح الدين الأيوبي فاستثمر كل النعم التي أنعم الله تعالى بها على الأمة الإسلامية، والتي وظفها قبله الملكان المسلمان العظيمان، عماد الدين زنكي، أول من رفع راية الجهاد ضد الصليبيين، وابنه نور الدين الذي ورث عن أبيه خاتم الملك، وراية الجهاد. لقد وفق الله تعالى الملك صلاح الدين، فواصل مسيرة الجهاد في سبيل الله تعالى، واستثمر نِعَم الله تعالى، وبنى على ما أسّسه عماد الدين، ورفع بنور الدين.

لقد نصر صلاح الدين ربه جل وعلا فنصره، ووفقه كي يوظف كل النعم من أجل الجهاد، وساق له قلوب الأئمة

الأعلام، والقوّاد، والأبطال، والملوك، والعامّة.

لقد تبيّن كلّ من اتّصل بصلاح الدّين أنّ الله سبحانه وتعالى وفّقه لطاعته عزّ وجلّ، وللاستمساك بهدي القرآن الكريم، والسّنّة النّبويّة المطهّرة، وتحقيق ذِرْوَة سنام الإسلام، وهي الجهاد في سبيل الله تعالى. لقد كان بقاء صلاح الدّين على ظهور خيل الجهاد أكثر من بقائه بقصور الملك والحشم. وكان بقاؤه مجاهداً فوق رابية في خيمته الّتي تهبّ عليها الرّياح ولو في شهر رمضان وفي الأعياد، أحبّ إليه من البقاء مع أهله وبنيه، الّذين يعمّهم حبّاً جمّاً، في بيته أو في قصره.

إنّ كلّ من رأى صلاح الدّين وَجَدَه مجاهداً، ووَجَدَهُ خير من يمثّل أخلاق الإسلام، فأحبّه أولياؤه، واحترمه أعداؤه.

وقد أكرمه الله تعالى فنصره نصراً عزيزاً في مواطن كثيرة، ووفّقه كي ينتزع من الصّليبيّين أكثر ما اغتصبوه. وقمّة النّصر في معركة حطّين، وقمّة ما استردّ القدس الشّريف والمسجد الأقصى.

وقد استمرّت الحروب مع الصّليبيّين، الّذين جاء ملوكهم بقضّهم وقضيضهم. ومن هؤلاء ملك فرنسا وملك انجلترا. وحتّى بعد سقوط صور وعكّا في أيدي الصّليبيّين، وبقاء مَلِك إنجلترا في الميدان، فإنّ صلاح الدّين ظلّ في قتاله له ملازماً له كظلّه، حتّى إنّ الصّليبيّين ما كانوا يسيرون إلّا بمحاذاة السّاحل الّذي تسير فيه وتحميهم سفنهم. وقد أُخِلّت ملك إنجلترا في إحدى المعارك من الموت بأعجوبة، حينما فداه بروحه أحد الجنود، فتبادلا في المعركة الثّياب، وقُتِل الجنديّ ونجا الملك.

لقد جاء المسلمون إلى صلاح الدّين أفواجاً لأجل الجهاد.

وقذف البحر الصليبيين بكل ما يحتاجون إليه من رجال وعتاد. وجنح الصليبيون إلى التسلم فجنح صلاح الدين. وبدأت المفاوضات واستمرت ولم تكن القدس والمسجد الأقصى في دائرة المفاوضات.

وتمت الموافقة على بنود الصلح، على أن يُسمح للنصارى بزيارة القدس الشريف، وأن يكون لهم جزءٌ من ساحل البحر الأبيض. لقد وافق صلاح الدين وملك إنجلترا على الشروط، وفوّضا من ينوب عنهما بالتوقيع، وتمّ تطبيق الصلح يوم الأربعاء الموافق ٢٩/٨/٥٨٨هـ وأثبت كلٌّ من الطرفين شهامته واحترامه لشرف الكلمة، والتوقيع على وثيقة الصلح.

هاهو ذا ريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا يعود بأسطوله إلى بلاده، وهاهو ذا صلاح الدين الأيوبي يستريح جيوشه، وذلك بعد جهاد بدأه عماد الدين سنة ٥٤٩هـ قبل ذلك.

وبعد أقل من ستة شهور توفي في دمشق صلاح الدين، وكل الذي في خزائنه سبعة وأربعون درهمًا لا تكفي لجهازه. رحمه الله تعالى رحمةً واسعة.

والله تعالى أسأل أن يضع القبول لهذا العمل، ويباركه، ويثيب عليه، إنه جوادٌ كريم. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

صبيحة يوم الأربعاء ١٢/٣/١٤٣٧هـ د. حسن محمد باجودة

الموافق ٢٣/١٢/٢٠١٥م أستاذ الدراسات القرآنية البيانية (سابقًا)

مكة المكرمة — جامعة أم القرى بمكة المكرمة

بين يدي ترجمة الملك صلاح الدين الأيوبي، يوسف بن أيوب بن شاذي،
٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣ م (١)

إذا نظرنا إلى سَيْر الحروب الصليبية، وردّ فعل الأمة الإسلامية، في سبيل استرداد المقدسات الإسلامية والقدس الشريف، فإننا نشير إلى أن هناك شخصيات مهمة ينبغي الحديث عنها. ومن مقدمة هذه الشخصيات المهمة شخصيات مجهولة في مجالها، لأنها أرادت بعملها وجه الله تعالى، فعملت في صمت، وبارك الله تعالى أعمالها. وعلى رأس هؤلاء الأئمة الأعلام.

ووراء الأئمة الأعلام الذين وفقهم الله تعالى فأعادوا الأمة الإسلامية إلى الصراط المستقيم، هناك أربع شخصيات مهمة في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى. وأولى هذه الشخصيات والأربع مجهولة أو شبه مجهولة. وهي شخصية المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند، بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين. وبإذن الله تعالى سنخصّه هنا بدراسة موجزة.

ويأتي بعد ذلك فرسان القدس الثلاثة، عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين. ولكلٍّ من هؤلاء الثلاثة قصيدة، وترجمة خاصة به. ولله الحمد والمنة.

---

(١) الأعلام ٨/٢٢٠

دور الأئمة الأعلام:

نظر الأئمة الأعلام إلى واقع الأمة الإسلامية، وانهزامها أمام الصليبيين، فأدركوا أن المسئولية إنما تقع عليهم من المقام الأول. وقد قال الله تعالى (١): ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾

شمر العلماء والأئمة الأعلام عن ساعد الجد، ودرسوا أحوال العالم الإسلامي، وشخصوا الداء، وعينوا الدواء. وقد تبينوا أن داء الأمة الإسلامية يكمن في بعدها عن هدي القرآن الكريم وسنة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، كما تبينوا أن دواءها في العودة إلى هدي القرآن الكريم وهدي سنة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وقد قال الله تعالى في سورة الإسراء (٢): ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ وفي حجة الوداع بين النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم عرفة، طريق نجاة المسلمين دائما وأبدا، وذلك باستمساكهم بهدي القرآن الكريم وهدي سنة النبي الكريم والرسول العظيم صلى الله عليه وسلم. قال صلى الله عليه وسلم (٣): «وقد تركت

---

(١) سورة الزمر ٩

(٢) سورة الإسراء ٩، ١٠

(٣) السيرة النبوية ٤/٥٠٩

فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بيّنًا، كتاب الله وسنة نبيّه»

هؤلاء الأئمة الأعلام أدركوا بنور الله تعالى أن المسئولية بإرادة الله تعالى تقع عليهم أولًا وآخرًا. إن مهمتهم الكبرى أن يعملوا جاهدين على إعادة الأمة الإسلامية إلى الصراط المستقيم، بأن تستمسك بهدي القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة. وهؤلاء الأئمة الأعلام لهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة. وقد قال عز من قائل (1): ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ لقد كان هؤلاء الأئمة الأعلام بحق أسوة حسنة للناس أجمعين. إنهم أقبلوا على الله تعالى، وأرادوا بأعمالهم الصالحة وجه ربهم الكريم، وانصرفوا عن الدنيا التي زهدوا فيها، وأقبلوا على الآخرة التي رغبوا فيها، وأقبلوا على العلم النافع، وعكفوا على القرآن الكريم، تلاوة، وتدبرًا، وعملًا بهديه، وعكفوا على السنة النبوية المطهرة، وتفرغوا للتدريس، وبارك الله تعالى جهودهم، وكثر تلاميذهم، وأتاهم الطلاب من كل حدب وصوب. وبارك الله تعالى في هؤلاء الطلاب، الذين حملوا معهم العلم النافع، ونشروه في كل مكان، فكانوا كالغيث الذي يأتي منه الخير المحض.

وأهم ما امتاز هؤلاء الأعلام زهدهم في كل شيء،

---

(1) سورة الأحزاب ٢١

ابتدأ بالملك، وانتهاءً بالجاه، لأنهم أخلصوا أعمالهم لله تعالى. وهؤلاء الأئمة الأعلام كانوا يعملون في صمت، وكانوا جميعًا حريصين على ألا تُعرَف أسماؤهم، وإن عُرِفَتْ فلا تذيع. ومع أن هؤلاء الأئمة الأعلام كثرة في الحقيقة، إلا أن التاريخ لم يحتفظ إلا بأسماء القليل منهم، وهذه الأسماء القليلة ذاعت رغم إرادة أصحابها. فقد كانوا يرغبون في الجزاء من الله تعالى وليس من البشر. وقد بارك الله تعالى جهودهم، فها هي ذي الأمة المسلمة لله تعالى رب العالمين، تعود بفضل الله تعالى، ثم بجهود هؤلاء الأئمة الأعلام، إلى الصراط المستقيم، وتجتهد في كل حقول المعرفة.

وحينما قبض الله تعالى أمرًا، وهو عودة القدس وسائر الأراضي المقدسات الإسلامية إلى المسلمين، ظهر بإذن الله تعالى فرسان القدس الثلاثة، عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين.

وحينما رفع عماد الدين زنكي راية الجهاد في سبيل الله تعالى سنة ٥٢٩هـ وجد بفضل الله تعالى الأمة الحية المجاهدة التي كانت مادة الجهاد الأولى.

وظلت راية الجهاد مرفوعة من يد عماد الدين زنكي حتى استشهد سنة ٥٤١هـ فحمل الراية نور الدين زنكي، محمود بن عماد الدين، حتى توفي سنة ٥٦٩هـ. فحمل الراية صلاح الدين الأيوبي الذي حرر القدس الشريف وعلى المسجد الأقصى سنة ٥٨٣هـ

إن الأمة الأعلام في الحقيقة هم أبطال قدسنا،

لأنّهم بفضل الله تعالى، نصروا الله تعالى فنصرهم الله تعالى، وهم أخلصوا في كلّ أعمالهم، فبارك الله تعالى.
إنّ الأئمّة الأعلام درّسوا الأبناء، واحتضنوا الفقراء منهم، واحتضنوا اليتامى، والذين قتل الصليبيّون آباءهم فأصبحوا لا معيل لهم. ومن هؤلاء اليتامى من أصبحوا أبطالاً، وقوّاداً، ومستشارين في عهد عماد الدّين ونور الدّين وصلاح الدّين.

ولم يكتف الأئمّة الأعلام بالدّروس النّظريّة، بل كان الكثيرون منهم، يقاتلون على الجهاد، عماد المتطوّعين في الجيوش النّظاميّة، وكلّهم أبلى بلاءً حسناً، ومنهم من أكرمه الله تعالى بالشّهادة، ومنهم من ينتظرها، وما بدّلوا تبديلاً.

وهؤلاء الأئمّة الأعلام عماد مجالس الشّورى في عهد عماد الدّين، ونور الدّين، وصلاح الدّين. وهم عماد الدّعاة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى. فقد أكرمهم الله تعالى فكانوا الأسوة الحسنة، والقدوة المثلى، قولاً، وعملاً، وجهاداً في سبيل الله تعالى، ودعوةً إلى الجهاد.

وهؤلاء الأئمّة الأعلام ظلّوا في ميدان الجهاد في سبيل الله، وفي كلّ المعارك، وهم من دعامات النّصر بإذن الله تعالى، من كلّ المعارك الحاسمة، مثل فتح عماد الدّين مملكة الرّها، وفتح نور الدّين حصن حارم، وانتصار صلاح الدّين الأيّوبي في معركة حطّين، وما بعد ذلك من المعارك.

إنّ هؤلاء الأئمّة الأعلام اكتشفوا بفضل الله

داء الأمة، وشخصوا الدواء، وقاموا بدور الطبيب المداوي، الذي أراد بعمله وجه الله تعالى، وليس الجزاء من البشر.

لقد أعاد هؤلاء الأئمة الأعلام بفضل الله تعالى الأمة إلى الصراط المستقيم، إلى القرآن الكريم وسنة خاتم النبيين وأشرف المرسلين، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وقد كان هؤلاء الأئمة الأعلام الأسوة الحسنة حقاً للأمة الإسلامية. وقد وجدت الأمة الإسلامية فيهم ضالتها المنشودة، فتحولت الأمة الإسلامية إلى خلية نحل من كل الأعمال الدينية والدنيوية.

وأكتفي بمثال واحد دليلاً على صدق هؤلاء الأئمة الأعلام فيما يقولون ويفعلون ويدعون إليه. فهذا الإمام الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ٤٥٠-٥٠٥ هـ = ١٠٥٨-١١١١م (١) أبو حامد، حجة الإسلام، والذي له نحو مئتي مصنف (٢) حينما توفي رحمه الله تعالى رحمة واسعة، ودخلوا عليه بعد وفاته، وجدوا على صدره صحيح الإمام البخاري، أصح الكتب بعد القرآن الكريم. وممن ذكر هذه الحقيقة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية وآخرون (٣)

---

(١) الأعلام ٧/٢٢

(٢) الأعلام ٧/٢٢

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا أعادت القدس. د. ماجد عرسان الكيلاني ص ١١٨ الدار العالمية للكتاب الإسلامي ١٤١٦هـ ١٩٩٥م

لقد أنجبت الأمة الإسلامية هؤلاء الأئمة الأعلام، وفي مقدمتهم فرسان القدس الثلاثة، عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين.

وما ذكرنا اسم واحد من الأئمة الأعلام الذين عملوا بجد واجتهاد في سبيل عودة الأمة الإسلامية إلى الطريق القويم، والصراط المستقيم، وهو حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ فإننا نود أن نذكر اسم شخص واحد، من أبطال المسلمين، الذين جمعوا بين العلم، والفقه، والدعوة إلى الله تعالى، والجهاد في سبيله عز وجل، وخوض المعارك الحامية، والحروب الدامية. وهذا العالم الربان من أعظم أصدقاء صلاح الدين الأيوبي وأحبائه ومرافقيه منذ أن عين صلاح الدين في مصر ملكاً، ولقب بالملك الناصر سنة ٥٦٤ هـ (١) هذا الفقيه هو العالم الربان عيسى الهكاري. لقد كان عيسى الهكاري مرافقاً لصلاح الدين حينما عين ملكاً على مصر. وقد عمل عيسى الهكاري على تثبيت أقدام صلاح الدين باستمالة الأمراء إليه وكانوا نافرين منه (٢)

وكان عيسى الهكاري من المجاهدين في سبيل الله تعالى، والمقاتلين في جيش صلاح الدين. وشاء الله تعالى لصلاح الدين أن ينهزم في الرملة سنة ٥٧٣ هـ بسبب عدم أخذ جيشه الحذر (٣) وكان أشد الناس قتالاً ذلك اليوم

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٤٢

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٤٤

(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٤٤

الفقيه عيسى الهكاري (١)

يقول ابن الأثير (٢): "وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج من الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير. وكان من جملة من أُسِرَ الفقيه عيسى الهكاري. وهو من أعيان الأسبذية، وكان جمع العلم والدين والشجاعة. وأُسِرَ أيضاً أخوه الظهير، وكانا قد سارا منهزمين فضلّا الطريق، فأُخِذا ومعهما جماعة من أصحابهما، وبقوا سنين من الأسر. فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بعشرين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأشرى"

وقد ظلّ الفقيه والعالم الربّاني عيسى الهكاري يجاهد في سبيل الله تعالى حتى توفّاه الله تعالى وقبضه إلى جواره فجر يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى (٣)

وقبل وفاة الفقيه عيسى الهكاري استشهد أخوه ظهير الدين: "ولقد رأيته وهو جالس يضحك، والناس يعزّونه، وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لا يوم العزاء" (٤)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٤٣

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٤٣

(٣) النوادر السلطانية ١١٦ وانظر كتاب الروضتين ٤/ ١٠٩

(٤) النوادر السلطانية ص ١١٢

كمشتكين بن دانشمند ؛ معلومات ضرورية :

بين يدي حديثنا الموجز عن المجاهد المسلم، كمشتكين بن دانشمند، بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين، نود أن نذكر بإيجاز، بعض المعلومات الضرورية.

رفع العرب راية الجهاد في سبيل الله تعالى مدة قرنين من الزمان ثم تقاعسوا، وتأنبوا عن المرتبات المنوطة بهم المؤتبزقة، فأخذ الملة الإسلامي ينحسر: ومن الأماكن التي شملها الانحسار بلاد الشام. وهاهي ذي الدولة البيزنطية تستعيد الكثير من الثغور في بلاد الشام وما جاورها. ومن المؤشرات على هذا الانحسار الإسلامي، استعانة الخليفة العباسي المعتصم بالله ١٧٩ - ٢٢٧هـ = ٧٩٥ - ٨٤١م (١) بالجنود الأتراك. ولكن ظل هؤلاء الجنود الأتراك المرتزقة محدودي العدد على عهد الخليفة المعتصم.

وشاء الله تعالى أن تدخل في الإسلام أمة فتية ترفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى، وهذه الأمة الفتية هم التركمان، أي البدو الرحل من الأتراك. وهم شعب تركي يقطن آسيا الوسطى (٢) والفضل لله تعالى ثم للدعاة الربانيين الذين أدخلوا في الإسلام هذه الأمة الفتية، ولا أحد يعرف اسم شخص واحد من هؤلاء الدعاة الذين أرادوا بعملهم وجه الله تعالى (١)

---

(١) الأعلام ٧/١٢٧

(٢) الموسوعة العربية الميسرة ٥٠٥

(٣) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ٩ ص

شاء الله تعالى أن يدخل في الإسلام سنة ٤٦٣ هـ نحو مئتي ألف خيمة، أي نحو مليون نسمة (١) وهؤلاء الأتراك اعتنقوا الإسلام على مذهب أهل السُّنّة (٢) وقد أسّس هؤلاء الأتراك المسلمون دولة السَّلاجقة، ورفعوا راية الجهاد في سبيل الله تعالى ضدّ البيزنطيّين، واستعادوا منهم هضبة أرمينيّة، وأنزلوا بالجيش البيزنطي هزيمةً ساحقةً في ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ ثمّ استعادوا من البيزنطيّين معظم الثغور الشاميّة والجزريّة التي احتلّوها إبّان ضعف المسلمين في القرن السّابق، بل وفتحوا آسيا الصّغرى لأوّل مرّةٍ في التّاريخ الإسلامي (٣)

من الّذين ساعدوا الملك السلجوقيّ ألب أرسلان في معركة ملاذكرد دانشمند، واسمه طايلو، ومعنى دانشمند المعلّم لأبناء التّركمان (٤) أعجب الملك ألب أرسلان بعقل دانشمند، وشجاعته، وشهامته، وحماسته للإسلام (٥) فأرسله ليفتح بلاد الأناضول، وأعفى بلاده من جميع التّكاليف، وشرط أن تكون له جميع البلاد الّتي يفتحها من بلاد الكفّار، وأعطاه موثقاً بأن لا يتعرّض

---

(١) الجاحد المسلم كمشتكين بن دانشمند ٩ والكامل في التاريخ ٨/٥٣٢

(٢) الجاحد المسلم كمشتكين بن دانشمند ص ٩

(٣) الجاحد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٠ ص

(٤) الجاحد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٢ ص

(٥) الجاحد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٣ ص

أحد من أولاد السلطان لشيء من بلاد الأمير دانشمند، وكتب بذلك كتاباً وسلمه إليه، ثم جهزه بما يحتاجه من المؤن، وأرسله إلى تلك البلاد سنة ٤٦٤ هـ ١٠٧٢ م (١)

ظل الأمير دانشمند على ولايته يغزو الروم مجاهداً في سبيل الله حتى وفاته سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م (٢) فخلفه ابنه الأكبر كمشتكين، المؤسس الحقيقي للدولة الدانشمندية في بلاد الأناضول (٣)

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٣ صـ
(٢) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٣ صـ
(٣) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٣ صـ

كمشتكين بن دانشمند:

توفي دانشمند سنة ٤٧٧هـ فخلفه ابنه كمشتكين، بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين. وأصل كمشتكين جهاده ضد البيزنطيين، واتسعت ولايته، وانتزع من البيزنطيين ميناء سيفنوب على ساحل البحر الأسود، لتكتمل بذلك مقومات الدولة الدانشمندية، بعد أن امتلك ميناءً مهمًا على ساحل البحر الأسود (١)

في تلك الأثناء كان الصليبيون يتوسعون على حساب المسلمين الذين أصابهم الوهن. حتى إن الصليبيين استولوا على ثلاث ممالك، هي مملكة الرها (٢) وذلك سنة ٤٩٠هـ ١٠٩٧م (٣) ومملكة أنطاكية التي استولوا عليها سنة ٤٩١هـ ١٠٩٨م (٤) ومملكة بيت المقدس الذي استولوا عليه سنة ٤٩٢هـ ١٠٩٩م. وارتكبوا فيه أبشع جريمة عرفها تاريخ الحروب الصليبية. وهي تلك المذبحة التي راح ضحيتها سبعون ألفًا من المسلمين (٥) وأنزل الصليبيون بالفاطميين هزيمة ساحقة عند عسقلان (٦) واستمروا في التوسع دون رادع.

---

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٣ ص

(٢) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٤ ص

(٣) الموسوعة العربية الميسرة ٢٨٢ والمجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٤ ص

(٤) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٤ ص

(٥) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٤ ص

(٦) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ١٤ ص

كان بوهمند النورمان العقل المدبر للصليبيين، والفارس المحقق لأطماعهم، فكافأه الصليبيون بأن جعلوه أميراً على إمارة أنطاكية (١) فقد تقدم بوهمند إلى حلب، والتقى بجيش أمير حلب رضوان بن تتش (٢) فهزمه، واستولى بوهمند على العديد من الأماكن المجاورة (٣) وتم ذلك سنة ٤٩٣ هـ ١١٠٠م (٤) ولم يبق لدى المسلمين غربي حلب سوى تل منس، وهو حصن قرب معرة النعمان (٥) وكانت عين بوهمند على مدينة حلب.

وشاء الله تعالى إفساد مخطط بوهمند على يد كمشتكين بن دانشمند الذي حاصر ملطية (٦) الخاضعة لجبريل الأرمني (٦) الذي استنجد ببوهمند. لبى بوهمند النداء، بجيش تختلف المصادر في تقدير عدد جنده (٧) وربما كان عدد جيشه خمسة آلاف مقاتل (٨) كان لكمشتكين عيونه، الذين بلغوه اتجاه بوهمند إلى ملطية، فكمن له كمشتكين بن دانشمند بين

---

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ص ١٥

(٢) نفسه ص ١٥

(٣) نفسه ص ١٥

(٤) نفسه ص ١٥

(٥) نفسه ص ١٦

(٦) نفسه ص ١٦ وملطية بفتح الميم واللام وسكون الطاء وتخفيف الياء باقوت

(٧) نفسه ص ١٧

(٨) نفسه ص ١٧

القتال. وحينما دنا منه بوهمند انقض عليه كمشتكين من أعلى تل انقضاض العقاب فى شهر رمضان المبارك سنة ٤٩٣ هـ أغسطس ١١٠٠ م (١) فهزم كمشتكين بوهمند هزيمة منكرة، وقتل معظم الصليبيين، وأسر بوهمند نفسه وابن عمه له وكثيراً من الفرسان (٢)

ساق كمشتكين بوهمند وكبار أسراه مكبلين بالسلاسل إلى قلعة نكسار المنعزلة فى مكان بعيد بجبال بنطس قرب البحر الأسود (٣) وجعل بوهمند طعماً كسر به ثلاث حملات صليبية. وترتب على انتصار كمشتكين على بوهمند إفساد مخططات بوهمند للاستيلاء على حلب، وارتفاع الروح المعنوية لدى سكان حلب وما جاورها من المناطق، وارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين بعامة، الذين أدركوا أنهم يقوون الله تعالى يستطيعون أن يحققوا النصر على الصليبيين، إذا اتحدوا، وجاهدوا، وصبروا، وصابروا.

ومن أهم نتائج انهزام بوهمند وجيشه تأكيد نقص الرجال الصليبيين، بعد أن عاد الكثيرون إلى بلادهم (٤) على أن أهم نتائج انتصار كمشتكين على بوهمند وأسره أن كمشتكين استطاع أن يكسر ثلاث حملات صليبية،

---

(١) الجامع المسلم لكمشتكين بن دانشمند ١٨ ص

(٢) نفسه ص ١٨

(٣) نفسه ص ١٨

(٤) نفسه ٢١ ص

كلّ حملة تضارع الحملة الصّليبيّة الأولى (١)

بعد أن استولى الصّليبيّون على بيت المقدس، عاد معظمهم إلى بلادهم في أوربّا، معتقدين أنّهم أوفوا بتعهّدهم الصّليبيّ بعد انتزاع بيت المقدس من المسلمين (٢) وقد نجم عن ذلك وجود نقص كبير في الرّجال في جميع الإمارات الصّليبيّة (٣)

وإنّ هزيمة بوهمند أمام كمشتكين أكّدت هذا النّقص في الرّجال (٤)

أحسّ القادة الصّليبيّون في الشّرق الإسلاميّ بالخطر النّاجم عن النّقص الكبير في القوّة البشريّة، فبعثوا الرّسائل إلى المسئولين في أوربا لإرسال النّجدات، كما أنّ الصّليبيّين الّذين عادوا إلى بلادهم بيّنوا للمسئولين الحاجة إلى إرسال القوى البشريّة إلى الشّرق، من أجل الاحتفاظ بالمكتسبات الّتي نالوها (٥)

تعلّم البابا الجديد، باسكال الثّاني، عقب اختياره لمنصب البابويّة مباشرة، نجاح الصّليبيّين في انتزاع بيت المقدس من المسلمين في الحملة الصّليبيّة الأولى، فدعا

---

(١) الجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ص٢٢

(٢) نفسه ص٢١

(٣) نفسه ص٢١

(٤) نفسه ص٢١ و ص٢٣

(٥) نفسه ص٢٥

فوراً إلى حملة صليبية جديدة ثانية (١) وحدد تاريخ ٢٨ إبريل ١١٠٠م موعداً لبدء رحيل الحملة (٢) وأعلن غفران ذنوب كل من يشترك في الحملة الجديدة، وتعهد بتقديم الميزات نفسها التي تعهد بها البابا أربان الثاني زمن الحملة الصليبية الأولى (٣)

وكانت لمبارديا من إيطاليا أول البلدان الأوربية إجابة للدعوة الجديدة (٤) وبلغ عدد اللمبارديين زهاء مئتي ألف (٥)

وكانت إجابة الفرنسيين لنداء البابا شبيهة بإجابة الإيطاليين (٦) وممن أجابوا الدعوة وليم التاسع، الذي ترك زوجته لتدير مملكته، وأخذ معه ثلة من الفتيات غير المتزوجات، مما يشير إلى فساد أخلاقه (٧) وممن أجابوا الدعوة شقيق ملك فرنسا (٨) وصه من شمال فرنسا (٩)

---

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ص ٢٥

(٢) نفسه ص ٢٥

(٣) نفسه ص ٢٦

(٤) نفسه ص ٢٩

(٥) نفسه ص ٢٩

(٦) نفسه ص ٣٠

(٧) نفسه ص ٣١

(٨) نفسه ص ٣٢

(٩) نفسه ص ٣٢

وكانت إجابة دعوة البابا في شرق فرنسا حماسيّة(١)
وكانت إجابة دعوة البابا في ألمانيا حماسيّةً أيضا (٢)
وبلغ عدد الذين أجابوا دعوة البابا من الأوربيين ثلاثمائة ألف شخص حسب تقدير المصادر الغربية (٣) والمصادر الإسلاميّة (٤)

وقد أسهم المتطوّعون، والحكّام، ورجال الدّين والأديرة في تمويل هذه الحملة الصّليبيّة (٥)

كانت القسطنطينيّة المكان الذي التقى فيه المتطوّعون، وزوّدهم الإمبراطور البيزنطي بقوة من الفرسان تقدّر بخمسمائة شخص، كي يرشدوا الصّليبيّين إلى الطّريق، وكي يتسلّموا منهم ما ينتزعونه من الأتراك من مواضع (٦)

كان أمام الصّليبيّين طريقان. الطّريق السّاحليّ داخل حدود الدّولة البيزنطيّة. وهذا الطّريق هو الذي سارت فيه الحملة الصّليبيّة الأولى، والذي نصح به الإمبراطور البيزنطيّ ومالت إليه الأغلبيّة. والطّريق الآخر البرّي (٧) وهذا الطّريق الآخر البرّيّ الذي يقطع هضبة الأناضول، هو

---

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ص ٣٣
(٢) نفسه ص ٣٣
(٣) نفسه ص ٣٤
(٤) نفسه ص ٣٥
(٥) نفسه ص ٣٥ و ٣٦
(٦) نفسه ص ٣٨ و ص ٣٩
(٧) نفسه ص ٣٩

طريقٌ محفوفٌ بالمخاطر، خاصّةً وأنّ اللمبارديين الأكثريّة أصرّوا على سلوك هذا الطريق، من أجل إطلاق سراح بوهمند النورمانيّ، الّذي يعتبرونه بطلهم القوميّ، ولا يثقون إلّا في قيادته. ومن أجل ذلك أصرّوا على الذهاب إلى قلعة بنكسار، من أقصى شمال شرق الأناضول بجبال بنطس قرب البحر الأسود لتخليص بوهمند من أسر كمشتكين (١)

لقد فاز هذا الرّأي الأخير بسبب كثرة أصحابه، فانصاعت الأقليّة للأكثريّة.

سارت هذه الحملة الصليبيّة في الطريق البرّيّ. وكانت مدينة أنقرة في الطريق فقتلوا كلّ المسلمين، وسلّموا أنقرة للبيزنطيّين حسب الاتّفاق (٢)

شحّ الطعام على هذه الحملة بسبب عدم وجود الأسواق، فقد خرّب المسلمون كلّ المدن والأسواق في طريق الحملة، وعانوا شدّة حرارة صيفيّة الأناضول في شهر يوليو (٣) هذا إلى نفاد الماء عبر الصحراء (٤) وقد حاولت سريّة صليبيّة التوغّل بقصد الحصول على الطعام فقضي عليها الأتراك قضاءً مبرماً (٥) وقد لاقت مقدّمة الجيش الصليبيّ المؤلّفة من سبعمائة من اللمبارديين المصير

---

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ص ٣٩

(٢) نفسه ص ٤١

(٣) نفسه ص ٤١

(٤) نفسه ص ٤٢

(٥) نفسه ٤٢

ذاته (١) ولم يفكر بعد ذلك شخص في ترك الجماعة والذهاب بعيداً، بحثاً عن الطعام أو الحطب (٢)

ومن الطريق صادفوا مدينة سمكانيا نصارى، فخرج إليهم قسا وسترا بملابس الدينية للترحيب بهم وهم يرفعون الأناجيل والصلبان، فما كان من الصليبيين إلا ذبح القسس وسائر السكان النصارى بقسوة ووحشية عجيبة، ونهبوا البلدة (٣)

جمع كمشتكين قواته، واستعان ببعض الحكام المسلمين ومنهم حاكم حلب وأمير حران (٤)

لجأ كمشتكين إلى إرسال الكتائب من الفرسان الرماة الذين يأتون في صيغة الموجات، ويمطرون الأعداء بالسهام التي لا تكاد تخطىء وهم يصيحون: الله أكبر (٥) لقد استمرت هذه الموجات من الفرسان ثلاثة أيام أوهنت من قوة الصليبيين (٦)

ثم تمت المواجهة بين المسلمين بقيادة كمشتكين بن دانشمند وبين الصليبيين، فأخذت الفئات الصليبية تنهزم تباعاً،

---

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ٤٢ ص

(٢) نفسه ٤٢ ص

(٣) نفسه ٤٣ ص

(٤) نفسه ٤٣ و ٤٤ ص

(٥) نفسه ٤٥ ص

(٦) نفسه ٤٥

ونصر الله تعالى المسلمين نصرًا عزيزًا، وغنموا. وقد بلغ عدد قتلى هذه الحملة الصليبية الأولى زهاء أربعة أخماس الجيش الصليبي، أي نحو ٨٠٪ من القوات الصليبية (١) وواصل المنهزمون السير بكل الوسائل الصعبة حتى وصلوا إلى القسطنطينية (٢)

وهذه الهزيمة للصليبيين وقعت عند مدينة مرسيفان خلال عدة أيام من شهر أغسطس ١١٠١م شوال ٤٩٤هـ (٣) وهذا هو مصير الحملة الصليبية الأولى التي كسرها المسلمون بقيادة كمشتكين بن دانشمند، وهو أول نصر حاسم نالته المسلمون ضد الصليبيين بعد سقوط بيت المقدس.

أما إبادة كمشتكين والمسلمين الحملة الصليبية الثانية فقد تمت عند مدينة هرقلة، وتسمى هذه المعركة معركة هرقلة الأولى (٤) وفيها تم إبادة الحملة الصليبية الثانية.

علم كمشتكين بقدوم الحملة الصليبية الثانية، فاستعد كمشتكين وقلج أرسلان للصليبيين. وقاما بتدمير مصادر المياه، فردما الآبار الواقعة على امتداد الطريق (٥) وأرهق المسلمون الصليبيين جوعًا وعطشًا وأسرع

---

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ٤٧

(٢) نفسه ٤٧

(٣) نفسه ٤٤ و ٥٠ و ٥١

(٤) نفسه ٥٠

(٥) نفسه ٥٢

كمشتكين وقلج أرسلان إلى هرقلة، وسبقا الصليبيين إليها. كمن الجيش الإسلامي للصليبيين، وعاملهم كما عامل الحملة الصليبية الأولى، فها هي ذي أمواج الفرسان الرماة تتتابع، وها هي ذي ترمي سهامها المشبعة بالبرد صائحة: الله أكبر، وها هو ذا جيش المسلمين ينقض على الصليبيين من فوق المرتفعات كالسيل الدامم، وكل من المسلمين كالصقر الكاسر، وها هم الصليبيون ينالون الهزيمة التي نالتها الحملة الصليبية الأولى، ولم ينج من الصليبيين إلا من كان فرسه قويًا، وإلا من فر على قدميه لا يلوي على أحد من النساء والأطفال.(1)

وهكذا كان أسر بوهمند النورماني وسجنه من نكسار الطعم الذي قصدته الحملة الصليبية الثانية، فلاقت في معركة هرقلة الأولى مصير الحملة الصليبية الأولى، وكذلك هو الطعم الذي تقصده الحملة الصليبية الثالثة، التي سوف تلاقي المصير ذاته في الموضع ذاته وها هي ذي:

معركة هرقلة الثانية:

تقوم هذه الحملة الصليبية الثالثة من الفرنسيين والألمان الذين اختاروا الطريق البري المحفوف بالمخاطر، والذي سارت فيه الحملتان الصليبيتان السابقتان المنهزمتان.

علم المسلمون بقيادة كمشتكين وقلج أرسلان بالحملة الصليبية الثالثة(1) فتعاملوا معها بالأسلوب ذاته. إنهم أخلوا

---

(1) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ص 52.

(2) نفسه ص 56.

المدن من كلّ خير يمكن أن ينتفع به الصّليبيّون، وأحرقوا الحقول، وقضّوا على كلّ الثّمار الموجودة في الطّريق، وردّموا الآبار والعيون. وفي أثناء السّير أو الوقوف تتتابع موجات الفرسان الماهرين في رمي السّهام. وكمن الجيش الإسلاميّ في الغابات خلف مدينة هِرَقْلة، وبالقرب من النّهر الّذي يتدفّق صَيْفًا. وحينما وصل الصّليبيّون إلى هِرَقْلة، وأبصروا النّهر، وكان قد استبدّ بهم الجوع والعطش، اندفعوا إلى النّهر دون نظام كي يشربوا.

أمطرهم الأتراك المسلمون بالسّهام فجأة، وقاموا بالهجوم عليهم دفعةً واحدة، فارتدّ الصّليبيّون عن النّهر على أدبارهم، وقاتلهم الأتراك المسلمون، وهزموهم في وقت قصير، وأبادوهم، وأسروهم، وغنموا النّساء والأبناء والأموال والخيول والذّخائر الحربيّة. ولم ينجُ من القوم إلّا من كان على فرس قويّ بعد أن أُلقي سلاحه، أو مَنْ كان قادرًا على الجَرْي، والهَرَب (١)

وهكذا كان مصير الحملة الصّليبيّة الثّالثة الهلاك عند مدينة هِرَقْلة. وكلّ هذه الانتصارات الثّلاثة للمسلمين سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م وبفضل الله تعالى ذهبت جهود البابويّة وأوربا في سبيل حشد تلك الحملات أدراج الرّياح (٢)

---

(١) انظر المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ٥٦ - ٦٠

(٢) نفسه ٦٠

وهكذا كان كمشتكين بن دانشمند أوّل من حقق انتصارات كبرى على الصليبيين. وقد توفي رحمه الله سنة ٤٩٩هـ ١١٠٥م (١)

وبعد زهاء ثلاثين عاماً رفع عماد الدين زنكي راية الجهاد في سبيل الله تعالى ضد الصليبيين حتى استشهد سنة ٥٤١هـ وأخذ منه ابنه محمود، نور الدين زنكي، راية الجهاد في سبيل الله تعالى حتى توفي سنة ٥٦٩هـ وأخذ منه صلاح الدين الأيوبي راية الجهاد في سبيل الله تعالى. وصلاح الدين الأيوبي هو بطل حطين واسترداد القدس الشريف والمسجد الأقصى سنة ٥٨٣هـ.

لقد تمّت الترجمة الموجزة لعماد الدين زنكي بين يدي القصيدة العمادية، وتمّت الترجمة الموجزة لنور الدين زنكي بين يدي القصيدة النورية. وهذه هي الترجمة الموجزة لصلاح الدين الأيوبي، بين يدي القصيدة الصلاحية. والله تعالى المستعان، وعليه التكلان.

ويبدو أنّ حياة صلاح الدين الأيوبي سيتمّ النظر إليها من زاويتين اثنتين.

من الزاوية التأريخية، من ولادته حتى وفاته رضي الله تعالى عنه. إنّ صلاح الدين قضى حياته مجاهداً في سبيل الله تعالى. وقد نصره الله تعالى نصراً عزيزاً على أعدائه أجمعين. وهي مهمّة مترسم الصليبيون.

---

(١) المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ص ٧٥

ومن الزاوية الإنسانية. إن صلاح الدين الأيوبي، الملك المسلم العظيم، قد جسد الأخلاق الإسلامية، التي تمثلها محمد صلى الله عليه وسلم. وإن من درس حياته رحمه الله تعالى، رحمة واسعة، يتبين أنه يكاد تكون منزلته غير بعيد من عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء الراشدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ومن مكارم أخلاق صلاح الدين حلمه. ونكتفي بمثال واحد دليلاً على حلمه. كان صلاح الدين يدخل عليه جنوده ضمن الداخلين عليه لقضاء حوائجهم والتوقيع بخطه على طلباتهم. ومن أحد الأيام تعب من كثرة التوقيعات فمد يده اليمنى ليستريح، وبسطها أمامه. فجاءه أحد الجند بمعروضه، واقترب من صلاح الدين أكثر من المعتاد، حتى إنه وطىء بقدمه يد صلاح، دون أن يشعر بما فعل. وطال انتظار صلاح الدين حتى يرفع الجندي قدمه، وطال انتظار الجندي حتى يوقع له صلاح الدين وينصرف. وأخيراً طلب من صلاح الدين توقيعه وقد طال انتظاره. فقال له صلاح الدين: كيف أوقع لك باليد التي أنت تطأ عليها، وتمسك بها قطن الجندي لحظته، وأبعد قدمه، وفعل مما فعل، ووقع له صلاح الدين وانصرف. تعجب الحاضرون من هذا الحلم (1)

---

(1) انظر صفحة النجوم الزاهرة 6/12

الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي:

صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ = ١١٣٧-١١٩٣م) (١) يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، الملقب بالملك الناصر (٢) من أشهر ملوك الإسلام (٣) أبوه وأصله من الأكراد. نزلوا تكريت (٤) وولي صلاح الدين من قلعة تكريت (٥) ثم ولي أبوه أيوب أعمالها فبغداد، والموصل، ودمشق (٦) ونشأ صلاح الدين في دمشق، وتفقه وتأدب وروى الحديث بها وبمصر والإسكندرية (٧) وحدث عن الفقيه عيسى (٨)

دخل صلاح الدين مع أبيه نجم الدين وعمه أسد الدين شيركوه في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (٩)

---

(١) الأعلام ٨/٢٢٠ وكتاب الروضتين ١/٣٠ والكامل في التاريخ ١٢/٥٨٩ وانظر كتاب الروضتين ٢/٥٦ و٥٧

(٢) الأعلام ٨/٢٢٠ والبداية والنهاية ١٢/٥٦ والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٣

(٣) الأعلام ٨/٢٢٠

(٤) الأعلام ٨/٢٢٠

(٥) البداية والنهاية ١٢/٥٦ والأعلام ٨/٢٢٠ والنوادر السلطانية ص٦

(٦) الأعلام ٨/٢٢٠ والنوادر السلطانية ص٦

(٧) الأعلام ٨/٢٢٠

(٨) الأعلام ٨/٢٢٠

(٩) الأعلام ٨/٢٢٠ والنوادر السلطانية ص٦

واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر (١) فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية (٢) وقد ذهب أسد الدين شيركوه إلى مصر ثلاث مرات. الأولى سنة ٥٥٩ هـ (٣) والثانية سنة ٥٦٢ هـ (٤) وستير نور الدين مع أسد الدين شيركوه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب (٥) والمرة الثالثة سنة ٥٦٤ هـ (٦) وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية (٧) ويبدو أن صلاح الدين رافق عمه أسد الدين إلى مصر المرة الثانية، وليس المرة الأولى، كما ذهب إلى ذلك بعضهم (٨) فإن لم أتبين لصلاح الدين دوراً في مصر في هذه المرة الأولى. وقد كان نور الدين في ذلك الوقت مهتماً بفتح حصن حارم. ويبدو أن صلاح الدين كان ساعده الأيمن في فتح حصن حارم، يعاون في هذه المهمة والده نجم الدين. والله تعالى أعلم.

---

(١) الأعلام ٨/٢٢٠

(٢) الأعلام ٨/٢٢٠

(٣) الأعلام ٨/٢٢٠ وكتاب الروضتين ١/٤٠٣

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٠ والبداية والنهاية ١٢/٢٥٢

(٥) كتاب الروضتين ٢/١٠

(٦) كتاب الروضتين ٢/٤٦ وانظر الكامل في التاريخ ١١/٣٣٥

(٧) كتاب الروضتين ٢/٤٦ والنوادر السلطانية صـ٣٨

(٨) انظر النوادر السلطانية صـ ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ لابن شداد يرى أن صاحب صلاح الدين مع عمه إلى مصر ثلاث مرات. والله تعالى أعلم.

وقد كانت في مصر وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية (١)

وقد تمت لشيركوه الظفر أخيراً، باسم السلطان نور الدين، فاستولى على زمام الأمور بمصر، واستوزره خليفتها العاضد الفاطمي (٢) وذلك سنة ٥٦٤هـ ولقبه بالملك المنصور (٣)

وشرقمان ما توفي أسد الدين شيركوه، وذلك يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام (٤)

وشاء الله تعالى أن تئول الوزارة إلى صلاح الدين الأيوبي، لما قدره الله تعالى من خير للإسلام والمسلمين.

لقد كان صلاح الدين محباً للشام بعامة، ودمشق بخاصة، فهي مرتع صباه. ولم يكن يفكر وقتاً من الأوقات في مفارقة الشام بطوعه، ودمشق باختياره. فكيف بالتشفر إلى مصر. ولكن الله سبحانه وتعالى اختار له الخير بالذهاب إلى مصر. وقد قال عز من قائل (٥): ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

---

(١) الأعلام ٨/ ٢٢٠

(٢) الأعلام ٨/ ٢٢٠ وكتاب الروضتين ٢/ ٦٤ والبداية والنهاية ١٢/ ٥٦

(٣) البداية والنهاية ١٢/ ٥٦ والنوادر السلطانية ص ٤

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٤١ والبداية والنهاية ١٢/ ٥٦ وكتاب الروضتين ٢/ ٦٤ و ٦٥ و ٦٨ والأعلام ٨/ ٢٢٠

(٥) سورة البقرة ٢١٦

صلاح الدين ملك مصر:

عرفنا أن صلاح الدين الأيوبي رافق عمه أسد الدين شيركوه في سفره إلى مصر، وتما في رحلة أسد الدين شيركوه الثانية إلى مصر. والله تعالى أعلم. وكان سفر صلاح الدين إلى مصر بالحاح من أسد الدين شيركوه، وبموافقة نور الدين، بل بتشجيع منه، لعلم نور الدين بكفاءة صلاح الدين، وصعوبة ضم مصر إلى دولة نور الدين.

لقد انتظر صلاح الدين لموافقة نور الدين على السفر إلى مصر، وموافقة أسد الدين شيركوه.

لقد ذلل نور الدين لصلاح الدين كل الصعوبات كي يرافق عمه أسد الدين شيركوه، وزوده بكل ما يحتاج إليه في هذه المهمة. وكان سفر صلاح الدين إلى مصر كأنه يساق إلى الموت وهو ينظر إليه (١)

وإذا كان صلاح الدين كارهاً السفر إلى مصر، وفي السفر إلى مصر كل الخير له وللإسلام والمسلمين، فقد كان زاهداً في كل منصب قيادي، وبخاصة منصب تمه الملك المنصور أسد الدين شيركوه، وبموته أصبح ذلك المنصب شاغراً، وفي ذلك المنصب كل الخير لصلاح الدين وللإسلام والمسلمين.

وإن الذي رشح صلاح الدين لكل هذه المهمات، في الشام ومصر ما تفضل الله تعالى به عليه من نعم وآلاء. فقد كان صلاح الدين كفاءة نادرة، وعملة صعبة كما يقولون.

---

(١) النوادر السلطانية ٣٦ والكامل في التاريخ ١١/ ٣٣٨ و ١١/ ٣٤٣ وانظر كتاب الروضتين ٢/ ١٠ وانظر النجوم الزاهرة ٦/

لقد خصّ الله تعالى صلاح الدّين الأيّوبيّ بمجموعةٍ من النّعوت منذ نعومة أظفاره، وهي نُعوتٌ يختصّ الله تعالى بها المُصطفَين من عباده، من ملوك الإسلام العظماء.

ومن هذه النّعوت الّتي خصّ الله تعالى بها صلاح الدّين الأيّوبيّ، الشّجاعة، والأمانة، والزّهد، والنّفس الكبيرة، ونور البصيرة، فلم يضيّع شيئاً من وقته وجهده فيما لا طائل تحته، ولا فائدة منه. هذا إلى حبّ الجهاد باعتباره سنام دين الإسلام، فالجهاد عبادةٌ لله تعالى وحْده لا شريك له، هذا إلى الصّدق، والوداد، والوفاء بالعهود مع الأصدقاء والأعداء، وبشأن زهده يتساوى في نظره التّبر والتّراب، فقد أعطى كلّ كفاءةٍ حقّها في مجال الجهاد بالسّيف والقلم.

إنّ صلاح الدّين الأيّوبيّ الّذي ترتعد فرائص الأعداء منه، والّذي يخطُبُ وُدّه مَلِكُ القسطنطينيّة وغيره من ملوك العالم العظام، حينما مات رحمه الله تعالى لم يخلّف من المال ما وجبت عليه به الزّكاة (١). هذا هو حاله في حياته رحمه الله تعالى رحمةً واسعة، فلم يبلغ ماله النّصاب الّذي تجب معه الزّكاة، وحينما توفّي لم يخلّف في خزانته من الذّهب والفضّة إلّا سبعةً وأربعين درهماً (٢) ولم يخلّف مُلكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا بُستاناً، ولا قريةً، ولا مزرعةً، ولا شيئاً من أنواع الأملاك، رحمة الله عليه (٣)

---

(١) النّوادر السّلطانيّة ص٨

(٢) النّوادر السّلطانيّة ص٨ وكتاب الرّوضتين ٤/٢٧٥

(٣) النّوادر السّلطانيّة ص٨ وانظر الكامل في التّاريخ ١٢/٩٦

وإنّ مِنْ أهمّ ما يمتاز به صلاح الدّين الأيّوبيّ أنّه رجل الأعمال والمواقف، وليس رجل الكلام، وصوالرّجل الصّادق فعْلاً وقَوْلاً. إنّ صلاح الدّين الأيّوبيّ يشبه ذلك النّهر السّريع الجريان، الخطير الانسياب، وكن في سكوت وسكون. ولا تدرك شِدّة خُطورَةِ ذلك النّوع من الأنهار، إلّا بالتعرّض لتيّاره، واعتراض جريانه.

واللّطيف في الأمر أنّ طُولَ صمت صلاح الدّين مع القيام بالأفعال المجيدة، سَبَبُ اتّجاه نظر الخليفة الفاطميّ العاضد إليه، والسّعي إلى توظيف كفاءته، وتسخير ضَمّته. ولذلك قرّر الخليفة العاضد إحلال صلاح الدّين محلّ عمّه أسد الدّين، استغلالاً لكفاءته من ناحية، وسرعة التّخلّص منه حينما يؤدّي الغرض من توظيفه، وحينما يريد الخليفة الفاطميّ وملَؤُهُ التّخلّصَ منه، ظنّاً منهم أنّ صلاح الدّين التّهمة السّائغة، والمركب الذّلول. وقد قالوا عزّ من قائل(١): ﴿ولا يحيق المكر السّيّئ إلّا بأهله﴾

لقد كان زوال الخلافة الفاطميّة بإذن الله تعالى على يد صلاح الدّين الأيّوبيّ، حينما وفّقه الله تعالى فعمّم المذهب السّنّي في مصر، ومنع شتم الصّحابة، ووحّد مذهب الدّولة، فأصبح للمسلمين خلافةٌ واحدة، هي الخلافة السّنّيّة في بغداد. ومَنَعَ في الأذان في مكّة المكرّمة: «حيّ على خير العمل»(٢)

لقد أراد الخليفة الفاطميّ العاضد أن يسخّر صلاح الدّين الأيّوبيّ لمصلحته الشّخصيّة، فإذا ما انتهى دَوْرُهُ تخلّص منه

---

(١) سورة فاطر ٤٣

(٢) كتاب الرّوضتين ٢/٢٧١

استضعافاً له، واستهانة به. وقد كان الجميع حريصاً على هذا المنصب.

وإليك ما يقوله ابن الأثير عن هذا المعنى (١): "وكان الذي حمله (الخليفة العاضد) على ذلك (إحلال صلاح الدين من منصب الوزارة) أنّ أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف. والرأي أن يُولّى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا. ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع به البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه".

دعا الخليفة صلاح الدين، وأعطاه وزارة مصر، وخلع عليه لقب الملك الناصر (٢) وسخّر الله تعالى لصلاح الدين الفقيه عيسى الهكّاري، الذي جمع بين العلم، والفقه، والشجاعة، والرغبة في الجهاد، فأحبّ صلاح الدين، وتوسّم فيه الخير، وقد بادله صلاح الدين حُبّاً. وقد استمال الفقيه عيسى قلوب المنافسين، فمالوا إلى صلاح الدين ووجدوا الجميع في صلاح الدين ضالّتهم (٣)

فها هو ذا صلاح الدين الشجاع، النزيه، الوفيّ، الزاهد، قد مالت القلوب إليه، ومكّن الله تعالى لصلاح الدين في أرض مصر. وها هو ذا صلاح الدين ملك مصر (٤)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٣٤٣

(٢) انظر الكامل في التاريخ ١١/٣٤٤ والبداية والنهاية ١٢/٥٦

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١١/٣٤٤

(٤) انظر الكامل في التاريخ ١١/٣٤٤

ونود أن نمر سريعًا على بعض أعمال صلاح الدين المجيدة في مصر. لقد صحب أسد الدين شيركوه إلى مصر ثلاث مرات. وفي ضوء عدم تبيّن أي دور، بل وجود، لصلاح الدين في رحلة أسد الدين الأولى إلى مصر، فقد رجحنا أن صلاح الدين كان في تلك الأثناء مع نور الدين في الشام. في أثناء رحلة أسد الدين الأولى إلى مصر بنصف الجيش، كان نور الدين يعمل بالنصف الآخر من الجيش من أجل فتح حصن حارم. وكان صلاح الدين مع نور الدين في هذه العملية. ووفّق الله تعالى نور الدين ففتح حصن حارم، وهو فتح يضارع فتح والده عماد الدين مدينة الرُّها، والقضاء على مملكة الرُّها، وهو انتصار يكاد يضارع انتصار صلاح الدين في معركة حطين.

لقد طبّق نور الدين وصلاح الدين في فتح حصن حارم مكيدة ضد الصليبيين، هي ذات المكيدة التي استعملها أسد الدين وصلاح الدين في مصر، في معركة البابين، في جنوب المنيا (١)

لقد كانت خطة نور الدين في معركة حصن حارم التي كانت في الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ٥٥٩ هـ (٢) لقد كانت خطته أن تتظاهر ميمنة جيشه بالانهزام أمام الصليبيين، الذين يطاردون بفرسانهم المتظاهرين بالهزيمة، والذين يسيرون وفق خطة محكمة، فيجتمعون ولا يتفرّقون. وبمطاردة المتظاهرين

---

(١) صلاح الدين الأيوبي، البطل الذي انتصر على الغرب ص ٦٩

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٠٣ وكتاب الروضتين ١/ ٤١٥

بالهزيمة يبتعد الفرسان عن المشاة، الذين ينقضّ عليهم الجيش الإسلاميّ فيقضي عليهم. إنّ هذا هو ما تمّ فعلاً بفضل الله تعالى. وها هو ذا نور الدين يفتح حصن حارم، ويساق إليه ملوك الصليبيين مُصفّدين، فيعفو عن قتلهم، ويكتفي بأسرهم، وسجنهم، وأخذ الفداء منهم (١)

وكان فتح حصن حارم في الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ٥٥٩ هـ (٢)

إنّ هذه الخطة التي طبّقها نور الدين في فتح حصن حارم، ونعتقد أنّ صلاح الدين كان معه، وكان ساعِدَهُ الأيمن فيها، هي التي استخدمها أسد الدين وصلاح الدين في معركة البابين بمصر، وذلك في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة خمسمائة واثنتين وستين (٣)

لقد كان جيش أسد الدين وصلاح الدين زهاء ألفي فارس، وجيش فرنجي الساحل ومصر زهاء عشرة آلاف (٤) أخبر أسد الدين صلاح الدين أنّ الخصوم يظنّون أنّ من قلب الجيش، فينزلون ثقله عليه، فأريدك أن تكون يا صلاح مكانك، وأنا مكانك أقود الميمنة. فإذا نشبت المعركة تظاهر بالهزيمة فيتبعك الفرسان فأميل على المشاة. فإذا عاد الفرسان تتبعونهم، فيكونون بين شقي الرحى،

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٣٠٣ و٣٠٤ وكتاب الروضتين ١/٤١٨

(٢) كتاب الروضتين ١/٤١٩

(٣) الكامل في التاريخ ١١/٣٢٥ وكتاب الروضتين ٢/١١ ويرى أنّ المعركة كانت في الخامس والعشرين من جمادى الأولى. وبالحساب نجد أنّ هذا هو الراجح.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ١١/٣٢٦ وكتاب الروضتين ٢/١٣

وهكذا انتصر عليهم بإذن الله تعالى وتبيدهم. وذلك الذي تم فعلاً.

وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم ذلك الجيش العرمرم (١)

لقد مكن الله تعالى ليوسف بن أيوب في أرض مصر.

إن صلاح الدين الأيوبي الساعد الأيمن لعمه أسد الدين شيركوه.

وإن صلاح الدين الأيوبي الساعد الأيمن للخليفة العاضد الفاطمي.

وقد أزال الله تعالى من طريق صلاح الدين كل العوائق، ومهد له السبل كي يكون ملك مصر، شبه المستقل عن نور الدين زنكي.

لقد قضى الله تعالى على شاور، وزير مصر الفاسد.

وقد مكن الله تعالى صلاح الدين من شاور، فكان سبب قتله، بأمر من الخليفة العاضد، وبرضا من أسد الدين شيركوه، الذي حل محل شاور، ولقبه الخليفة الفاطمي بالملك المنصور (٢) وهو: أسد الدين يرسل إلى الخليفة العاضد برأس شاور، نفاذاً لأمر الخليفة في السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هجرية (٣)

---

(١) كتاب الروضتين ٢ / ١٣ والكامل في التاريخ ١١ / ٣٢٦ والبداية والنهاية ١٢ / ٢٥٢

(٢) الكامل في التاريخ ١١ / ٣٤٠ وانظر البداية والنهاية ١٢ / ٢٥٢

(٣) الكامل في التاريخ ١١ / ٣٤٠

وبذلك زالت أكبر عقبة في طريق أسد الدين شيركوه كي يكون ملك مصر. وها هو ذا الخليفة الفاطمي العاضد يعين أسد الدين في منصب شاور، ويخلع عليه لقب الملك المنصور أمير الجيوش (١) وشاء الله تعالى ألا تطول حياة أسد الدين، فقد اصطفاه الله تعالى إلى جواره يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام (٢)

وها هو ذا صلاح الدين يخلفه بإذن الله تعالى. وها هو ذا صلاح الدين الأيوبي يرسل إليه العاضد ويحضره عنده ويخلع عليه، ويوليه الوزارة بعد عمه (٣) ويلقبه بالملك الناصر (٤) وإن من أهم أسباب اختيار الخليفة العاضد وملئه صلاح الدين استضعافه لصغر سنه، وأدبه الجم، وعمله في صمت. وهذه نعوت من بعض فضل الله تعالى على صلاح الدين الأيوبي. ويدرك بعض مظاهر فضل الله تعالى على صلاح الدين الذي ولد سنة ٥٣٢هـ وعلى الإسلام والمسلمين، حينما يتبين أن صلاح الدين الأيوبي يصبح ملك مصر في جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ ويحمل راية الجهاد في سبيل الله تعالى حتى إنفاذ عقد صلح الرملة مع

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٤٠ والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥٦

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٤٠ والنوادر السلطانية ٤٠

(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٤٣

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٤٤

الصليبيين بتاريخ ٢٩/٨/٥٨٨هـ (١) وفي ليلة الأربعاء ٢٧/٢/٥٨٩هـ اصطفاه الله تعالى إلى جواره بعد مرض استمر اثني عشر يومًا (٢) أي أن صلاح الدين الأيوبي توفي قبل مضي ستة شهور على إنفاذ صلح الرملة مع الصليبيين، ولله تعالى الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

لقد مضى زهاء ستين عامًا في جهاد الصليبيين منذ أن رفع عماد الدين زنكي راية الجهاد في سبيل الله تعالى سنة ٥٢٩هـ (٣) وأخذ راية الجهاد منه بعد استشهاده ابنه محمود، نور الدين زنكي وذلك سنة ٥٤١هـ (٤) وبعد وفاة محمود زنكي حمل راية الجهاد صلاح الدين الأيوبي، الذي غرس هذه الراية في القدس بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ (٥) وكان تسلم صلاح الدين القدس يوم الجمعة ٢٧/٧/٥٨٣هـ (٦)

ويلاحظ أن راية الجهاد في سبيل الله تعالى ظلت عالية خفاقة منذ أن رفعها عماد الدين زنكي ضد الصليبيين سنة ٥٢٩هـ حتى إنفاذ صلح الرملة بين صلاح الدين وبين الصليبيين بتاريخ ٢٩/٨/٥٨٨هـ

لقد شاء الله تعالى طرد الصليبيين الذين عاثوا

---

(١) النوادر السلطانية ٢٣٦

(٢) النوادر السلطانية ٢٤٦

(٣) كتاب الروضتين ١/١٢٠ وفي سنة ٥٢٩هـ تم لعماد الدين حدثان مهمان. رفع راية الجهاد ووفاة والده عماد الدين رحمهما الله تعالى.

(٤) الكامل في التاريخ ١١/١١٠

(٥) الكامل في التاريخ ١١/٥٤٩

فساداً من بلادنا. لقد ساق الله تعالى القلوب والرجال إلى فرسان القدس الثلاثة، عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين. قال عز من قائل (1): ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾

المعنى، والله تعالى أعلم، لله تعالى ملائكة تتعاقب الإنسان، ليلاً ونهاراً، من بين يدي الإنسان ومن خلفه بالتناوب، فثمة ملكان بالنهار، وملكان بالليل، يتعاقبان على حفظ الإنسان، يحفظونه بأمر الله تعالى. إن الله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فيبدلوا نعمة الله تعالى كفراً، ويحلوا قومهم دار البوار والهلاك. وإذا أراد الله تعالى بقوم سوءاً فلا مرد له، ولا صارف ولا دافع، وليس لهم من دون الله تعالى من ولي ولا ناصر (2).

وهذا السوء هو الذي أراده الله تعالى للصليبيين.

وإذا كانت آية سورة الرعد أشارت إلى الملكين الحافظين للإنسان، فإن سورة ق أشارت إلى الملكين الكاتبين. قال عز من قائل (3): ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.

---

(1) سورة الرعد 11

(2) انظر التفسير البسيط 13/ 147 و 148

(3) سورة ق 16 - 18

إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد.
ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد،
بمعنى حاضر (١) إنّ الملك عن اليمين يكتب الحسنات،
وإنّ الملك عن اليسار يكتب السيئات. وإنّ الملك
أمام الإنسان يحفظه من أمامه. وإنّ الملك خلف الإنسان
يحفظه من خلفه. فالإنسان بين أربعة ملائكة بالنهار،
وأربعة آخرين بالليل بدلًا. ويتمّ التناوب بين الملائكة
في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر (٢)

إنّ الأمّة الإسلاميّة حينما نصرت الله تعالى بطاعته
عزّ وجلّ نصرها نصرًا عزيزًا، وفتح لها فتحًا مبينًا.

لقد مكّن الله تعالى لصلاح الدّين الأيّوبيّ في الأرض،
ونصره نصرًا عزيزًا لأنّه نصر الله تعالى بطاعته عزّ وجلّ.

إنّ صلاح الدّين الأيّوبيّ حينما أكرمه الله تعالى بحكم مصر،
استشعر فضل الله تعالى عليه، وشكر لله تعالى نعمه
العظيمة، وآلاءه الجسيمة، فتاب عن الخمر، وأعرض عن
أسباب اللّهو، وتقمّص بلباس الجدّ والاجتهاد، وما عاد
عنه، ولا ازداد إلّا جدًّا، إلى أن توفّاه الله إلى
رحمته (٣)

وحينما مكّن الله تعالى لصلاح الدّين في أرض مصر مكّنه
الله تعالى من إبراز مواهبه الّتي أكرمه الله تعالى بها،

---

(١) الجلالين.
(٢) انظر التفسير البسيط ١٣/ ١٤٦ و ١٤٧
(٣) النوادر السلطانيّة ٤٠ ص

لقد أكرم الله تعالى صلاح الدين فمكّنه من إظهار مواهبه.
إنّ صلاح الدين أظهر كفاءته الرّجوليّة من وَأْدِ الفِتَن.
ومنها فتنة السّودان سنة ٥٦٤هـ وكانوا كاتبوا الفرنج واستدعوهم كي يتقوّوا بهم ضدّ صلاح الدّين (١) لقد حاربهم صلاح الدّين حتّى طلبوا الأمان فأجابهم إلى ذلك ونفاهم من مصر إلى الجيزة (٢) ومنها فتنة المتآمرين ضدّ صلاح الدّين ممّن أرادوا الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويّين.
لقد صلبهم صلاح الدّين ثاني رمضان سنة ٥٦٩هـ منهم عُمارة بن أبي الحسن اليمنيّ الشّاعر (٣) ومنها فتنة السّودان والعرب وغيرهم بصعيد مصر بزعامة رجل يُدعى الكنز، فقُتِل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم (٤) وذلك في أوّل سنة ٥٧٠هـ (٥)

كما أظهر صلاح الدّين كفاءته القتاليّة في صدّ الأعداء من الفرنج في المقام الأوّل وفي حربه للفرنج.
ففي شهر صفر من سنة ٥٦٥هـ نزل فرنج الشّام على مدينة دمياط ومعهم من أعانهم من الفرنج في صقليّة وإنجلترة وغيرهما، فتصدّى لهم صلاح الدّين الذي أرسل

---

(١) الكامل في التّاريخ ١١/ ٣٤٥
(٢) الكامل في التّاريخ ١١/ ٣٤٧
(٣) الكامل في التّاريخ ١١/ ٣٩٨
(٤) الكامل في التّاريخ ١١/ ٤١٤
(٥) الكامل في التّاريخ ١١/ ٤١٤

إلى دمياط العساكر من النيل، وحشر فيها كلّ مَنْ عنده، وأمدّهم بالأموال والسلاح والذخائر (١) واستنجد بنور الدين زنكي الذي أمدّ صلاح الدين بالرجال أرسالاً، وبالسلاح (٢) والذي انتهز الفرصة بذهاب فرنج الشام إلى دمياط فأغار على بلاد الفرنج الشامية، فنهبها، واستباحها، فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل خلوّ البلاد من مانع (٣) كما أمدّ الخليفة العاضد صلاح الدين بالكثير من المال (٤) فما كان من الفرنج سوى الرجوع من دمياط بخفّي حنين، بعد حصار لها دام خمسين يومًا (٥)

بل إنّ صلاح الدين أخذ يهاجم الفرنج. إنه سنة ٥٦٦ هـ أغار على أعمال عسقلان، والرملة، وغزة. وجاءه ملك الفرنج فقاتله صلاح الدين، وهزمه وجنوده. وكاد يقع ملك الفرنج في الأسر ولكنه نجا (٦) وبعد أن عاد صلاح الدين إلى مصر جمّل مراكب مجزأة، وحملها قطعًا على الجمال في البرّ، وقصد أيلة. وضمّ تلك جمع قطع المراكب، وألقاها في البحر. وحاصر أيلة برًا وبحرًا. وفتح أيلة في العشر الأول من ربيع الآخر. واستباحها،

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٥١
(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٥٢ أرسالا: أفواجًا.
(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٥٢
(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٥٢
(٥) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٥٢
(٦) الكامل في التاريخ ١١/ ٣٦٥

وعاد إلى مصر (١)

وفي سنة ٥٦٨ هـ في شهر شوال رحل صلاح الدين من مصر بعساكره جميعاً إلى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك، والاجتماع مع نور الدين عليه، والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين، كل واحد منهما من جهة بعسكره (٢) وسبق صلاح الدين نور الدين، حتى إذا كان بينه وبين الكرك مرحلتان بلغه نبأ مرض والده نجم الدين، فاضطر لأن يعود إلى مصر. وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى نور الدين يخبره بمرض نجم الدين، واضطراره للعودة إلى مصر، فعذره نور الدين. وقد توفي الله تعالى نجم الدين قبل أن يصل ولده صلاح الدين إلى مصر (٣) وكان موت نجم الدين في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ (٤)

وكان الاحترام متبادلاً بين نور الدين وصلاح. ويبدو أن الوشاة أرادوا أن يوقعوا بينهما. وكان صلاح الدين يُبدي الولاء دائماً وأبداً لنور الدين.

وكما كان الاحترام متبادلاً بين صلاح الدين ونور الدين كان الاحترام متبادلاً بين صلاح الدين وبين الخليفة العباسي. ومن أهم الأدلة على الاحترام المتبادل وولاء صلاح الدين لنور الدين والخليفة العباسي، استجابة صلاح الدين لطلب

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٣٦٥ وأيلة مدينة على ساحل البحر الأحمر تمايلي الشام.
(٢) الكامل في التاريخ ١١/٣٩٢
(٣) الكامل في التاريخ ١١/٣٩٣
(٤) الكامل في التاريخ ١١/٣٩٣

لنور الدين المعطوف على طلب الخليفة العباسي بقطع الخطبة للعلويين وإقامة الخطبة للعباسيين. لقد بادر صلاح الدين إلى قطع خطبة العاضد وأقام الخطبة للعباسيين، وذلك في ثامن جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ (١) لقد كان صلاح الدين على الحقيقة نائب نور الدين، ولا يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين (٢) وكان الخليفة العباسي المستنجد قد كتب لنور الدين في هذا المعنى (٣)

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يُعْلِمْهُ أحدٌ من أهله وأصحابه بقطع الخطبة وقالوا: إن عُوفِيَ فهو يعلم. وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته. فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة (٤)

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصور الخلافة (٥)

لقد كانت قصور الخلافة كثيرة، وأموالها غزيرة، وتحفها جمّة. وكانت الضرائب التي تجبى من المواطنين تصل إلى ٤٥٪ (٦) لقد أثبت صلاح الدين أنه هو الرجل الأمين، الزاهد في الأموال، وفي كل غرض زائل.

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٣٦٨ وكتاب الروضتين ٢/١٨٩-١٩١، ١٩٨

(٢) الكامل في التاريخ ١١/٣٦٩

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٩٨

(٤) الكامل في التاريخ ١١/٣٦٩

(٥) الكامل في التاريخ ١١/٣٦٩

(٦) كتاب الروضتين ١/٣٨

وكان صلاح الدين رمز الوفاء مع نور الدين. ولم يكن لنور الدين أي سلطة في مصر. ومع ذلك فقد كان رمز الطاعة لنور الدين، وقد كان صلاح الدين وحده هو المستمسك في مصر بهذا الولاء لنور الدين من بين كل رجالات الدولة في مصر (١)

وظلّ صلاح الدين على ولائه لنور الدين، حتى توفّى الله تعالى نور الدين (٢) ولا تزداد قدم صلاح الدين في مصر إلا رسوخاً.

---

(١) كتاب الروضتين ٢/ ٣١٠

(٢) كتاب الروضتين ٢/ ٣١٠

صلاح الدين ملك مصر والشام:

كان صلاح الدين شبه مستقل بحكم مصر في أثناء حياة نور الدين الذي بعث صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه لضم مصر إلى دولة نور الدين في الشام والجزيرة وما إليهما. وشاء الله تعالى أن يتوفى نور الدين زنكي فجأة يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة ٥٦٩هـ (١) وكان عمر أكبر أبنائه، واسمه إسماعيل إحدى عشرة سنة، فقام بالملك بعده، ولقب بالملك الصالح (٢) وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق. وأقام بها. وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر. وخطب له صلاح الدين بمصر. وضربت النقود باسمه (٣) وتولى تربية الملك الصالح الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم (٤) وكان من رأيه إحاطة صلاح الدين بأحوال الملك والبلاد لأنه هو الملك الأقوى في المنطقة، ولكن أصحاب المنافع الخاصة خافوا من صلاح الدين فأهملوه (٥) كما أنهم تمسكوا بالملك الصالح في دمشق، ولم يرسلوه إلى حلب، خوفاً من أن يغلبهم عليه أكبر الأمراء النورية، وهو شمس الدين علي بن الدّاية (٦)

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/٤٠٢ وكتاب الروضتين ٢/٢٠٥ و٢٠٩ - ٢١١ و٢١٣ و١/٩٢

(٢) الكامل في التاريخ ١١/٤٠٥

(٣) الكامل في التاريخ ١١/٤٠٥

(٤) الكامل في التاريخ ١١/٤٠٥

(٥) الكامل في التاريخ ١١/٤٠٥

(٦) الكامل في التاريخ ١١/٤٠٦

لم يمضِ غيرُ وقتٍ قليلٍ حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك. وأرسل دنانير مصرية عليها اسم الملك الصالح، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه (١)

وبسبب ضعف الملك الصالح وضعف أنصاره كادت الدولة التي بناها نور الدين على دولة أبيه عماد الدين تغدو أثراً بعد عين. فها هوذا سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل يجيء بعسكره ويستولي على بلاد الجزيرة سوى جعبر ورأس عين (٢) ويكتفي بما أخذوا استولى عليه ويعود إلى الموصل (٣) وكذلك تحرك الفرنج فحاصروا بانياس (٤) فهادنهم الضعفاء من أصحاب الملك الصالح، وهدنوهم بصاحب الموصل شرقاً وهو سيف الدين غازي، وبصلاح الدين صاحب مصر غرباً، فغلبهم الخوف وعادوا (٥)

علم صلاح الدين بما حدث فأرسل إلى الملك الصالح يعاتبه على إخفاء ما حدث عليه، ووعده بالمجيء لمقارعة الفرنج (٦)

لقد اضطربت البلاد الشامية والجزيرة (٧) ورُئِيَ صلاح الدين

---

(١) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٠٥

(٢) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٠٧

(٣) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٠٧

(٤) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٠٨

(٥) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٠٨

(٦) الكامل في التاريخ ١١/ ٤٠٨

(٧) الأعلام ٨/ ٢٢٠